

مدينة السحر والثقافة والنجومية تعاقبت عليها الزلازل بيروت تعيش انتكاساتها خارج الأضواء  
فمتى تولد من جديد؟

بيسان طي

لو أراد مخرج عالمي أن يختار بيروت مسرحاً لفيلم تدور أحداثه على امتداد عقود من القرن العشرين، لاختار أي الحكايات  
بروي. فهذه المدينة التي تعيش اليوم قلقاً جديداً على مصيرها، انتعشت ونهضت في سنوات قليلة، جذبت إليها المثقفين  
والشعراء والكتاب واللاجئين السياسيين والفنانين، واحتضنت كل ما يمت لقطاع الخدمات بصلة، وصارت في بضع سنوات  
مكاناً لجمع المال السهل. كانت تعيش ليل نهار، حين تغرب الشمس تستعيب عنها برغبة سكانها وزوارها باقتناص كل  
اللحظات ليسجلوها في دفاتر أيامهم الجميلة.

ترى من يكون بطل فيلمه: ملكة جمال أم عارضة، تاجر أم صاحب فندق، شاعر أم باحث أم مناضل سياسي؟ وقد يكون  
السؤال الأصعب أي عنوان يختار للفيلم؟ وفي أي ديكور يصوره: شرقي أم غربي، أم يختار له 'خليطاً' يرتمي عند شاطئ  
البحر.

فجأة لم تعد هذه المدينة 'ثانوية'، بعد استقلالها عن الانتداب الفرنسي العام 1943... كان ثمة دور تنهياً للعبة. وبرعت كما  
أكثر الممثلات موهبة في اغواء جمهورها... لكنها كانت 'نجمة'، وحياة النجوم - بعيداً من الكاميرات - صعبة، يعصف بها  
القلق والمشاكل التي تمزقهم أحياناً. الابتسامات التي يقابلون بها جمهورهم تخفي مرارة عميقة، والماكياج يخفي دموعاً  
يزرفونها في الليالي الطويلة التي تفقر إلى الاستقرار، إلى 'حب حقيقي'. وتكتمل عناصر بريق قصة المدينة مع ذلك الغموض  
المحيط بولادتها، فلا أحد يجزم من هو مؤسسها الأول.

التاريخ

قبل

مسكونة

في كتابه عن تاريخ العاصمة اللبنانية اختار سمير قصير 'بيروت قبل بيروت' عنواناً للفصل الأول الذي يؤرخ للمدينة قبل  
'نهضتها'. صارت لبيروت مكانتها العربية بعد الاستقلال، لكنها ليست مدينة ولدت مع دورها الجديد، فقد وجد المنقبون آثاراً  
في منطقة رأس بيروت تعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد، ويبدو أن المنطقة التي تمتد عليها كانت مسكونة خلال فترات  
متقطعة من الحقبة التي اصطلح على تسميتها 'قبل التاريخ'. وفي جنوب المدينة وجدت أدوات شاهدة على العصر الحجري  
القديم.

البحر هو سر هذه المدينة المعروفة ب'أم الشرائع'، وجدت ليكون الشاطئ ضفتها إلى العالم، فمع انتشار الحرف عرف  
الهلال الكنعاني نمواً كبيراً وبرزت مدنه على ضفاف المتوسط.

هذه المدينة شهدت مرور حضارات كثيرة، لكن قلما تذكرها كتب التاريخ لأنها لم تكن ذات أهمية في المرحلة العربية وفي  
الحقب الإسلامية. وفي كتاب 'تاريخ بيروت' نتعرف إلى ما عاشته هذه المدينة في الحقبة الكنعانية على رغم أن مؤرخي تلك  
الحقبة والمتحدثين عن حضارة الفينيقيين يركزون على مدن لبنانية أخرى هي جبيل وصيدا وصور، وقد تكون بيروت ولدت  
في المراحل الأولى للملاحة، فقد كانت توفر الملجأ لمن يقصدها كما كانت بفضل بناييعها الكثيرة مورداً للسفن.

'بيروت المجهولة' هذه كشفت في سنوات العز والنجومية ثراءها، ففيها عثر المنقبون على كتابات تعود إلى الغزو الذي شنته  
الأسرة الفرعونية الثانية عشرة. وبروي أن ظهور المدينة الحقيقي في كتابات المؤرخين بدأ بعد غزو الاسكندر للمنطقة، وقد  
وجدت فيها قطع نقدية من عملات الغزاة المقدونيين، وعاشت المدينة كما كل مدن سورية فترات طويلة اتسمت بعدم  
الاستقرار، ازدهار، ثم تكوص، فانتعاش... فترجع.

أكثر الحقبات وضوحا بالنسبة إلى المؤرخين تبدأ مع الاستعمار الروماني لبيروت، حين تحولت مركزا حضريا مهما. وأدت كلية الحقوق فيها دورا في سن القوانين وفي النقاش التشريعي. وفي القرن السادس عرفت المدينة نشاطا ثقافيا وتجاريا، لكنه كان أيضا القرن الذي عاشت خلاله زلزالا مدمرا، ثم تتالت عليها الزلازل وأخفت معالمها مرارا، لتعود بعد حقبات وتنزوي وراء الستارة، وتشغل أدوار الكومبارس...ومرت العقود والقرون، واتعب الظل المدينة فقررت أن ترمي مشلح البؤس للتألق بأبهى الحلى والأزياء.

مطبعة الشرق صارت، فكم من الكتاب والروائيين والشعراء والباحثين والمؤرخين العرب التجأوا إليها، سجلوا فيها ولاداتهم الحقيقية، ومحاولاتهم، والمشاركة المنتجة لتيارات ثقافية.

أسئلة الهوية السياسية

هل تذكرون مجلة 'شعر' مثلا؟ هل يسهل تعداد الكتب التي كانت تصدر من مطابعها في شكل يومي؟ هل نذكر أسماء الناشطين والسياسيين العرب الذي هربوا إليها بحثا عن نسمة حرية، ينتقلون في شوارعها وبين مقاهيها ومكاتب الناشئين. وكانت تلك الشوارع مكتظة بالسائحين العرب وبالسماسة والتجار وموزعي الخدمات السياحية، هكذا كان ازدهار بيروت. القلق حول أسئلة الهوية السياسية والانتماء تفجر حربا أهلية دامت 15 عاما وانهدكت المدينة، لكنها قاومت، نذكر أنها عام 1982 احترقت ولم ترفع للإسرائيليين الراية البيضاء، وقاومت وتحملت المجازر وأخرجتهم.

ليست حربا بل حروب تلك التي عاشتها بيروت، خاضها اللبنانيون أنفسهم لحساباتهم وحسابات دول أجنبية، وانتهت الحرب مخلفة عشرات آلاف القتلى وانقسامات حادة في المجتمع اللبناني.

الخلافات لم تنته بعد الحرب، لكن السلاح رفع من أيدي المختلفين. صارت بيروت 'مدينة الباطون المسلح'. المخالفات المعمارية طبعت العاصمة، ثم أعيد اعمارها، خصوصا وسطها. وعلى رغم ازدهار هذه المنطقة فإنها أثارت جدلا بسبب التخطيط والدور الذي رسم لها. السياح عادوا بكثرة إلى بيروت، وكادت تنسى مثقفيها وفنانيها، لتلعب الدور الجديد الذي رسم لها بعد الحرب اللبنانية، وفي سياق المعطيات الإقليمية المستجدة. تغيرت المدينة التي لا يمكن الجزم بهوية مدنية أو معمارية لها، قل الخضار واجتاح الباطون معالمها، وصار التراثي قليل فيها. ارتفعت مكانه الأبنية الشاهقة وامتدت إلى البحر وكورنيشه، فصارت الصور الملتقطة لمرفئها عند عين المريسة في بداية القرن العشرين تبدو وكأنها صور لمدينة أخرى.

في بيروت شوارع قليلة لا تزال تحتفظ بشيء من التراث كشارعي سبيرز وبشارة الخوري، ويبدل المجلس البلدي للمدينة جهودا للحفاظ على المباني المصنفة كمبان تراثية وهي تعود في معظمها للقرن التاسع عشر. ولحظت خطط إعادة اعمار المدينة اوتوسترادات ضخمة لتنظيم حركة السير وربطها بشريان الجنوب الأساسي.

بيروت التي أحرقتها الكاميرات لكثرة ما سلطت عليها - برضا أهلها وبطلب منها - تعيش انتكاسة أو خوفا جديدا والأسئلة مفتوحة حول مصيرها. هي لا تزال في قلب الشعراء والكتاب الذين تغنوا بها وان لم يجدوا مكانتهم فيها بعد الحرب، وفي الأيام الأخيرة كانت أغنية 'يا ست الدنيا يا بيروت' ترتفع في بعض الشوارع دعوة من محبيها لئلا تستسلم مجددا لمنطق النزاع، لكن النجوم أصحاب مزاجات متقلبة ومختلفة. بعضهم في ساعات الانتكاسة يستجيب لنداءات الجمهور، وبعضهم الآخر تخيفه الخصات فيختار العزلة أو المخاطر.

الموضوع: عام

المصدر: الحياة